البحث عن المطلق

للاستاذ صبحي شفيق

بديهي أن كل فنان يعتمد في تصوير مجالاته الفنية — بما تستنفذه وتبعثه من تجارب — على رمز من الرموز . فاللفظ ، واللون ، والنغم ، كلها وسائل تهدف إلى المعنى الحادث خلفها ، فليست هي غايات في حد ذاتها ، لأنها تضمحل في ذات الوقت الذي يصل أثرها إلى الآخرين ، تتلاشى تماماً من عالم الحس ، بعد أن خلقت في وجداننا صوراً مترابطة تمام الترابط ، متجسمة تمام التجسم ، هي عالم الفنان الذي نشاركه هذه المشاركة الوجدانية .

وحينما نعجب بهذا الأثر أو ذاك ، لانفطن إطلاقاً إلى مشكل نقدي يكمن خلف حكمنا العام هذا . إننا نعكس الآثار الفنية على أنفسنا ، وقد نسينا هذا الذي خلقها : أي طريق قطعها من أجل الوصول إلى هذه الصورة الخالصة التي نتملاها في لحظات؟ .. أي إحساس ملك كيانه حتى تمت هذه المشاركة الوجدانية ؟ . . ولو حاولنا رد هذا التساؤل إلى أصوله في النفس الفنانة ، لأضفنا الكثير إلى ذواتنا المتذوقة ، ولأخرجناها من موقعة الحكم الذاتي ، والنقد التأثري ، إلى مجالات أخرى أهمها تحديد قيمة الأثر الفني مجرداً من الأهواء : فكيف يكون ذلك ؟ . .

لنرجع إلى فناننا ذاته . إننا نجده مهموماً ، وهمه لا ينقطع ، من أجل الوصول إلى فن خالص . يريد أن يكون فناناً قبل كل شيء ، وأثره يريده كذلك فناً قبل كل شيء ، ولابد من طريق يسلكها . لابد من اتجاه يتحدد أمامه ، وكلما جال ببصره في الماضي وجده لا يعطيه الكثير ، وكلما اتجه إلى المستقبل ، وجد الناس أحلاماً متمايزة ، كل منهم يريده فناناً على هواه الخاص ، يعطيه ما يوائم مزاجه وحده دون سواه . فكيف يعبر وهذا الضجيج يجتاح كل ملكاته ويسلمه إلى قلق واضطراب شديدين ؟ . .

وفناناً لا يجهل ما يراد منه إنه يعرف أن عليه توصيل ما يضطرب في دخيلته . . وهذا حقاً مشكل هين حين نتأمله من الخارج ، ولكنه كل شيء لدى الفنان . ومع توافر وسائل الأداء ، ونضوج الموضوع ، فإنه يتردد ، يتردد كثيراً فإن الصورة النهائية التي تنتهي إليها مجالاته المتيقنا ، نسميها في يسر : أثراً فنياً . . ليست إلا عوالمه وما تحمل ، ليست إلا هذا الشيء الذي يحنو عليه بكل ما يجرفه من مشاعر ، يريدها شيئاً كاملا لا تشوبه شائبة تنجم عن نقص هنا ، أو عثرة هناك ، فهو في كلمة واحدة ، يريد أن يصل إلى فن خالص . .

وإزاء هذه الرغبة التي يعرفها كل فنان ، يترسب في طواياه شعور بالواجب ، عليه أن يكون (أميناً) في التقاط كل الانفعالية لحركات وجدانه المحلل [1] هذا الذي تصل إليه صور المدركات الحسية ، وصور كل التجارب التي ينفعل لها ، مستمدة قيمتها الاتما تطبعه في الدفعة الواحدة ، ولكن من هذه التجزئة التي تحدد الأجزاء متتابعة ، وتربط الصور ربطاً متسقاً ، تبرز التجربة وتجسمها بما يكتنفها من نتوء وسطوح ومنحنيات .

وهنا يحدث الصراع بين موضعين متعارضين : فلو ساير وجدانه وحده لفقد هذا العنصر الآخر الكامن في نفسه ، وهو الذي سميناه واجب الفنان ، فمسئوليته عن الأثر تجعله يقف إزاء طواياه المستترة وعالمه الآخر : هل كل شيء يقال ؟ . . هل يعبر عن هذا الكل المجزأ ؟ . . ولو عبر عن هذا فهل يصل إلى الفن الخالص الذي يريد ؟ . .

وفناننا لم يصل إلى موضع التقاء بين خطين متعارضين : بين الفن الخالص والمسئولية .. هو متردد بعض الشيء لأنه لم يكتشف طريقه بعد .. وها هو ذا يجد كل هذا التوتر النفسي قد تبلور في رغبة أخرى غامضة كلهم ، ولكنها أخطر من كل ما مر بسواله المتشابكة الكثيرة الاهتزاز : هذه الرغبة : ما هي ؟ . وكيف يلقى أمانيه فيها ؟ . لقد سمع النقاد يرددون : اتخذ لك طابعاً . خلف أثرك بغلاف شكلي يشتمل على الكل والجزء في آن . أبرزه في قالب يتوافر فيه عنصر التناسق ! ... وهنا يوافي فناننا الحائر هذا

(١) نطلق لفظة « وجدان محلل » على عالم الفنان وحده ، فكل إنسان يحس ، وليس كل إنسان يستطيع التعبير . والفنان هو الانسان المعبر ، فالفارق بين ما تخلفه التجارب في وجدانه ووجدان الآخرين إنه يدركها محللة مجسمة ، بينما يأخذها الآخرون صوراً مبهمة . .

النوع من الارتياح الذى يعرفه السائر فى الطريق المجهـــول حينما يلمح بغتة الضوء الخافت يكشف له الخطوط الممتدة على مرمى البصر ينبثق منها الأمل القريب .

ولكن : أتراه وجد آماله فى هذا ؟ .

لقد أراحه هذا فى ناحية واحدة ، وكان قاصراً عليهـا دون مناحيه كفنان ، هى ناحية الشكل ، ناحية الظل البادى فى هذه الزاوية ، والخافت المتدرج فى الأخرى ، والنور الملقى بضوئه فى سائر الأجزاء . أما الداخل ؟؟ . أما فى الكيان نفسه ، . أما فى المضمون الفنى . فمـا زال إحساسه قلقاً ، ولكن بهارج الزينات التى يضفيها الطابع la forme على ما حوله ، قد أنسته حيرته بعض الشىء .

وما دام يتحسس الشكل ، فيده لم توضع إلا على الأبعاد الوهمية للفن دون الداخل . تلك التى يحاول بعض النقاد تحديد الأثر بها ، وإخضاعه للتجزئة على هـذا القياس ، كيما يصل إلى النمط المتسق الذى يخـدع التذوق تمـام الخديعـة . فهم يدركون حقيقة كامنة فى الفصل الملىء بالقوى ، الفائض بالطاقات الحيوانية ، هذا الفصل الذى نسميه مشاركة الوجدان . وهذه الحقيقة المرتبطة بكل هـذا ، هى الراحة النفسية التى يحسها الآخرون . فتجدهم يرددون فى لهث متقطع : اعطوه ما يرتاح إليه ، وما نرتاح إليـه نحن أيضاً .

ولا تحدث الراحة النفسية إلا إزاء ما تطبعه فينا الأشياء من شعور بالتحرر ، بأنها نازعة أبداً إلى الصورة النقية . قف قليلا أمام منزل سقطت واجهته ، وبدا عارياً من كل إتساق . إنك تجده يبدو كخط متكسر ، أو كجملة خطوط متكسرة ، فمجالاتك البصرية لا تجول فى أبعاد فسيحة متسقة . خط يعترضك هنا . زوايا تصدم حرية بصرك هناك . فتجد نفسك قد شعرت بنوع من القلق ، تجد نفسك لا ترتاح إلى هذا الشكل إطلاقاً ، بينما تشعر بانشراح نفسى إذا ما نظرت إلى انطباق الأفق والأرض فى ساعات المغيب . وما التحرر الذى نستشعره إلا فى كون ما نراه هو هـذا الشىء الذى لا يوقفنا قليلا لوعورة هنا ، أو خطوط هشة هناك . إننا نميل للمنحنيات بفطرتنا ، نميل إلى الأشيـاء التى تغلف الجوهر ، وكل ما يتفرع منه بغلاف ليس فيـه من بروز شوهاء ... أما الخطوط المتكسرة ، فهى تقطع تجاوبنا النفسى ، وتعاطفنا نحوها . إننا لا ننتقل معها بمشاعرنا فى انسياب أبداً ، ولا تحركنا معها مفسحـة مجالاتنا النفسية ، ولا تجعلنا نستشعر الوحدة فى هـذا الانحدار الحر . بغير عائق . وعلى هذا الأساس تقوم العلائق بيننا وبين شتى الفنون .

وهنا تحدث الخديعة ، إذ تختلط معطيات الحس والوجدان لدى الفنان والمتذوق على حد سواء ، فلا تفرقة بين (شـكل) و (مضمون) ، فهما يحسبان الاثنين أشياء تستوى لدى التأمل والتعبير بغير افتئات ، كلاهما مطلب من مطالب الراحة الوجدانية ، وكلاهما تماطف بلغ أوجه الإتساق .

وحقيقة أننا نجد فى هذه الفنون الشكلية الألوان المنسحبة من سطح إلى سطح ، فى وحدة وترابط تثير انفعالاتنا . ونجـد كذلك الأصـوات فى إيقاعها الرتيب تحرف مشاعرنا ، وكذلك الألفاظ فى ترادفها وتتابعها تحدث هذا النوع من التعاطف الجمالى (Esthétiques) . ولكن كلما نفذنا إلى كنه المسألة ، وجدنا كل هذا طلاء . طلاء مروع أشبه بالغشاوة تحجب أعيننا ، وتتركنا فى حال من تداعى الصور لذيذ ، فنحن لا نخرج من كل هذا إلا بالحذر ، بالسكن الوقتى . أما التيار فى عمقه وقوته فلم يصلنا بعد ، لأن فنانا كان حائراً فى استكشاف المنبع والأصل ، كان يضرب فى طريق يحيطها الوهم الرومانتى إلى حد النثيان ، وكان كل ما يريده عالقاً بالشكليات .

ومن هذه الخديعة وجدت الدعوات الكثيرة التى انتهت إلى قالب من قوالب فلسفـة الفن ، فالفن عـند البعض لعب راق ، وعند البعض متعة لاذة ، وعند البعض حدس غيبوبى ، فى كل هذا يختفت المنطق وتستطيل العبارات الشاعرية ، ويدور الإنسان مع نفسه فى تأمل واستكشاف لما فيها ، فى تداع ترجسى [1]

---

(١) فى الأساطير اليونانية يقال أن نرجس قد خرج مرة للنزهة ، ووقف قليلا إزاء أحد النهيرات . فلمح فى الماء صورته لأول مرة . . فصار لا يفارقها إطلاقاً . . لقد عشق نفسه تماماً . . ثم فنى فى سبيل هـذا العشق . فحولته آلهة الاولمب إلى الزهرة المعروفة باسمه . . وفى حياتنا النفسية نعاود الأسطورة نفسها فى كثير من الأحيان . . إننا نتأمل أنفسنا معجبين ، ولا نشعر إطلاقا بما يجب علينا عمله . . وكل فنان يدور مع نفسه ، فى هذا الوهم الفاتن ، يصح أن نطلق عليه هذا اللفظ . .

وما كان هذا التضارب فى الآراء، إلا حيرة الكائن الحى فى فهم مضمون نشاطه . إن هذا الخدر المنطوى فى اللاشعور ، يريد أن يخرج إلى مجالات الإدراك ، ولكنه يتعثر دائماً ، ويحدث كل هذا الخلط فى تحديد القيم .

لقد كانوا جميعاً ، نقاداً وفنانين أشبه براكب السيارة يحاول الوصول إلى بؤرة المرآة التى أمامه ، يريد اللحاق بصورته المتجمعة فيها ، وحواسه تخدعه ، فهى له الحركة الوهمية ، بينما المسافة ثابتة بينهما ، وكل الخلاف فى الزمن القياسى .

كانوا جميعاً غارقين فى بؤرة الأبعاد الشكلية ، فى الحين الذى يحل فيه المشكل يتدرج النظر بين البؤرة ومكان الجالس ، بين (الشكل) و (الجوهر)، هـذا الذى لا يمكننا أن نمسكه ونضعه فى أنبوبة اختبار ، ولكن نستشعره فى المضمون الخالص .

فكيف نصل إلى هذا ! أين نجده ؟ .

إننا نجد الشىء دائماً فى طوية موضوعه ، ولكننا ننسى هذه الحقيقة الكبيرة ، فنفتش فى الخارج، غافلين عن ملكاتنا التى تستطيع اللاحظة والربط والاستدلال .

وموضوعنا هو كيان النشاط الفنى ، إنه يمنحنا ما يفسح الطريق على مداها ، وفى ذات الفنان الخالقة نلقى مادة بحثنا ، فكل ما نريده فى الداخل ، وفى الداخل دائماً .

وما دمنا قد بعدنا عن الأبعاد الخارجية ، فإنا نلقى الذات الخالقة ، من — ذات الفنان — كل منافذها متفتحة لتأخذ وتعطى . ولا بد من منظم قوى لنشاطها ، فليس الأخذ والعطاء هنا عملية حسابية فى رسة الأوراق المالية . إنه عالم النفس الإنسانية . وكل منظم قوى نريده، نقصد به حل مشكلة واحدة ، هى قلقلة الاضطراب السائد فى دخيلة الفنان ، هـذا الاضطراب الذى يرجع إلى حالة التوتر بين (واجب) و (تعبير) فى الآنة الواحدة ، فى الزمن الذى يتسرب فيه النشاط ليتكامل المضمون .

وإذا وصلنا إلى هذا النظم القوى وامتلأت نفس الفنان به ، لا يحدث القلق ولا التحى الشكلى : وما هو النظم إذا لم يكن الوصول إلى الوضع الفاصل بين حدى التوتر ، بين تحديد قيمة (التعبير) وتحديد قيمة (المسئولية)، إلى مركز حركتين متعارضتين ، ولكنها متشابكتان ؟ .

كيف نصل إليه ؟ كيف ؟

نلاحظ أن أكثر الفنانين يعطوننا فناً مريضاً . فيه صرخات جوفاء ، وفيه عويل ونحيب . إنه أشبه بجنازة طويلة لا ينتهى فيها البكاء . وهذا فى جملته ليس عالمك أنت ولا عالمى أنا ، ولا عالم سائر البشر الموجودين ، إنه حالة تشبه الاغماء ، أشياء لا يفهمها إلا خالقها ، وهو يعبر عنها تعبيراً فيه الكثير من حرق البخور ، والترهب ، ومناجاة الأرواح الخفية . إنها حالة فيها التداعى إلى حد انفلاق (الرمى الفنى) الذى يستحيل الوجدان به شيئاً محللا ، وتتم به عملية الروابط وتتحدد بالوضوح إذا ما توافر لديه .

وتتم به عملية الربط وتتحدد به عملية التصور ، ويتميز الفن

وما السبب فى هذا ؟؟ ...

ليس من سبب إلا أن فناننا هذا ، صاحب الفن المريض ، كان يعيش وحده. ليست له عيون كالعدسة ترقب وتلتقط وتعكس ، وتعطى كل ما تستنفذه إلى مدركات حسية ، ترتبط برباط الفن .

لا ، لم يكن هذا طابع المسألة ، وإنما فناننا مصاب بالنرجسية الراقية ، وحقيقة إنه لا يعجب بنفسه ، ولا يتأمل محاسنه، ولكنه دائر مع نفسه فى صورة أخرى منعكسة على أثر فنى يريد إخراجه. هو يجول مع هذه الشاعر النرجسية ، متأملا نفسه ، مطلا عليها من عالمه وحده . ولنفس السبب نجد أكثر الآثار الفنية يبدو كأنها آتية إلينا من عالم غريب ، ليس عالمنا . إننا نحس فى القصص أو الأشعار التى تدخل فى هذا النطاق ، بأن نقل أوراق كتبها يعيدنا إلى عالم المحسوسات حولنا بين الفينة والفينة ، وفى أحيان كثيرة يصرخ البعض : لا نستطيع أن نستمر فى قراءة هذا . إذ هـذه اللوحة غريبة عنى ، أو هذه القطعة الموسيقية لا تخاطبنى .

ولماذا يقول هذا ؟ إن الفن تعبير، وكل تعبير يعنى الوضوح ، فكل الناس تدور مع نفسها ، ولكن الفنان — كما أسلفت — هو الذى يخرج هذه العوالم المنغلقة على ذواتها، إلى الخارج الموضوعى.

ولا يمكن أن يصل إلى هذا الوضع إلا إذا سقطت عنه أقنعة النرجسية ... لأن الرابط بين كل الحواس ، يبدو واضحاً فى حد ذاته لديه . إنه يعطيه التوازن فى الربط ، والتناسب فى معطيات الوجدان ، والتعاطف بينه وبين موضوعه ، لأنه يحس حينئذ بأن ما يخرجه هو مسئول عنه ، إنه مولوده البكر يصرخ متلمساً موضع حنان .